

الحقيقة واليقين القلبي بين الغزالي وباسكال

Truth and heartfelt certainty between Al-Ghazali and Pascal

كبيش عبد الرحمان¹

abderrahmane.kaibiche@univ-alger2.dz,¹ جامعة الجزائر 2

تاريخ الاستلام: 2024/06/20 تاريخ القبول: 2025/05/13 تاريخ النشر: 2025/06/03

Abstract:

This study seeks to compare Al-Ghazali's approach in his search truth with Pascal's approach, which specifies total certainty as a condition of truth. They both believe that heartfelt certainty is the highest possible level of certainty, especially with regard to religious truth.

The study concluded that Pascal's ideas were a clear repetition of Al-Ghazali's ideas. Even if there is no study proving that Pascal was influenced by Al-Ghazali, the latter's primacy in the matter confirms his philosophical and scientific originality.

Keywords :Method; truth; doubt; certainty; heartfelt certainty.

المؤلف المرسل: كبيش عبد الرحمان

البريد الإلكتروني: abderrahmane.kaibiche@univ-alger2.dz

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة منهج الغزالي في بحثه عن الحقيقة اليقينية بمنهج باسكال الذي بدوره يضع اليقين التام شرطاً للحقيقة. فكلاهما يؤمن بأن اليقين القلبي هو أعلى مراتب اليقين الممكنة، وخاصة فيما يتعلق بالحقيقة الدينية. وقد توصلت الدراسة إلى أن أفكار باسكال قد كانت تكراراً واضحاً لأفكار الغزالي. ومع انعدام أي دراسة تثبت تأثير باسكال بالغزالي، فإن أسبقية الغزالي في هذا الشأن تؤكد على أصالته الفلسفية والعلمية.

الكلمات المفتاحية: المنهج؛ الحقيقة؛ الشك؛ اليقين؛ اليقين القلبي.

1. مقدمة :

لا يقل تأثير الغزالي (1059-1114) في فلاسفة الغرب عن تأثير ابن رشد وابن سينا والفارابي، فقد ساهمت حركة النقل والترجمة خلال القرن الثالث عشر في ترجمة الكثير من مؤلفاته على غرار "مقاصد الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال". وقد ساهم المستشرقون بدورهم في تقريب فلسفة الغزالي ومنهجه من القارئ الأوروبي، وهذا بدوره قد كان سبباً من أسباب تأثير الكثير من فلاسفة الغرب بالغزالي ومن بينهم باسكال.

وإذا كانت الشواهد التاريخية تثبت اطلاع ديكارت على بعض مؤلفات الغزالي المترجمة إلى اللاتينية وعلى رأسها "المنقذ من الضلال"، وهو ما تؤكد الشواهد الفلسفية التي تثبت تشابه منهج الفيلسوفين إلى حد التطابق، وهذا بالذات ما يرجح حالة تأثيره المباشر بالغزالي. وبالمقابل فإن غياب الشواهد التاريخية في حالة باسكال والغزالي، لا ينفي عن باسكال إمكانية تأثيره بمنهج الغزالي وفلسفته من خلال ديكارت ذاته، على اعتبار أن باسكال قد كان تلميذاً لديكارت في فترة من الفترات.

يتشابه منهج باسكال (1623-1662) في بحثه عن الحقيقة مع منهج الغزالي إلى حد بعيد، بل إن الكثير من المفاهيم التي ارتبطت بمنهج الغزالي على غرار الشك واليقين ونور القلب ومحدودية العقل والعناية الإلهية، كلها مفاهيم تكررت في فلسفة باسكال بصورة واضحة، وهو ما يثبت على الأقل أسبقية الغزالي في هذا الشأن. وبناء عليه أردنا أن نتناول في دراستنا مفهوم الحقيقة وكذا مفهوم اليقين القلبي عند كلا الفيلسوفين، وعلى إثرهما سنحاول تحديد مدى تكرار أفكار الغزالي عند باسكال، ومدى تحديد ذلك لتأثر باسكال أو عدم تأثره بالغزالي. وعليه، فقد حددنا الإشكالية كالتالي:

الإشكالية:

- ما هي الحقيقة وما هو اليقين عند الغزالي؟
- ما هي الحقيقة وما هو اليقين القلبي عند باسكال؟
- وإلى مدى يمكن اعتبار تكرار أفكار الغزالي في فلسفة باسكال دليلاً كافياً على تأثر هذا الأخير بالغزالي؟

2. الحقيقة واليقين القلبي عند الغزالي:

1.2 الشك والحقيقة:

ينطلق الغزالي في بحثه عن الحقيقة من قاعدتين هما: الأولسوي أن "الشك دليل على وجود الحقيقة"، فكل شك هو اعتراف بوجودها، ووجود الحقيقة بدوره دليل على مشروعية الشك، وقد ذهب في كتابه المنقذ من الضلال إلى أن أصناف الطالبين للحقيقة أربعة، ولكل صنف نصيبه من هذه القاعدة، وقد كان هذا ديدن الغزالي منذ صغره وريعان شبابه. فقد ذكر في قوله: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلي، لا باختيارى وحيلتي¹».

الثانية وهي أنه "لا سبيل لبلوغ الحقيقة إلا بالشك"، شك يقوم على وجودها لا على انتفاءها أو عدمها، بل إنه يذهب إلى أن ضرورة الشك لا تتأتى من ارتباطه بالحقيقة، بل تتأتى من كونه يمثل منهجا للفكر والحياة معا، به يستقيم الفكر فيخلو من الأوهام وبه تستقيم الحياة فتخلو من المعتقدات الخاطئة، وقد أعلن عن هذه الحقيقة في قوله: «الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»².

والمعنى المقصود من هذا القول هو أن الحقيقة لا تطلب لذاتها، بل تطلب من أجل غاية محددة وهي التحرر من العمى والضلال، وأول صور العمى والضلال هو التقليد، وعليه فمن أراد أن يتحرر من التقليد عليه أن يتخذ من الشك منهجا له في الفكر والحياة، وحتى يكون الشك منهجيا لا شكاهما ينبغي أن يكون الوسيلة لا الغاية في ذاته، وأن تكون تلك الغاية ممكنة التحقق في الوقت نفسه. غير أن أهم خصائص الشك المنهجي هي أن يكون إراديا وواعيا لا مجرد انفلات شعوري أو نتيجة لإكراه وجودي، إذ بدون هذه الخاصية لن يكون الشك منهجيا ولن تكون الحقيقة المطلوبة ممكنة أو متاحة. وإذا كان الشك المنهجي هو الطريق الوحيد لليقين، فينبغي على من يشك أن يؤمن بوجود الحقيقة، لأن عدم الإيمان بوجودها يكون سببا في فتور الإرادة والرغبة في طلبها. وقد جمع الغزالي في الشك المنهجي ثلاث خصائص أساسية هي: تحديد الحقيقة كغاية، الرغبة فيها، والإيمان بوجودها³.

2.2 الشك واليقين:

يسعبل شك منهجي إلى تحقيق يقين محدد، وهذا ما تقتضيه طبيعة الحقيقة، فهي متعددة في جوانبها وموضوعاتها، غير أنه لا وجود لما يسمى باليقين التام فيها. فاليقين ممكن فقط ما دامت الحقيقة ممكنة، ولأنه لا وجود لحقيقة مطلقة، فإنه لا وجود ليقين تام أو مطلق كذلك، وإنما هناك معرفة أو علم بالأشياء وكفى. وبهذا المعنى فإن

كل معرفة أو علم تحقق معنى اليقين بالذات وإن لم يكن تاماً أو مطلقاً، والعبرة عند الغزالي هي انزياح غشاوة الغموض وحجاب الجهل. فالعلم هو ما يهدي إليه الحس الصادق، لا الحس الخادع وتحديداً في المجال الذي لا سبيل في الوصول إليه إلا بالحس. كما أن العلم هو ما يهدي إليه النص أيضاً، لا ما تدل عليه ظواهره في المجالات التي ينفع فيها استغناء العلم عن النص. وفي سبيل التأكيد على هذه المعاني حدد الغزالي تعريف العلم كالآتي: «العلم هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ. ينبغي أن يكون مقارناً لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهارها بطلانه مثلاً من: يقلب الحجر ذهباً، والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً ولا انكاراً»⁴.

لقد بدأ الغزالي رحلة البحث عن الحقيقة في ظل واقع تتضارب فيه الشيع والأحزاب والمذاهب، وكل منها يدعي سلوكه مسلك الحق والصواب، وكل ما دونها على باطل وضلال. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن جميعها تتشج برداء الدين وتستمد من القرآن والسنة أدلة تستند عليها. لقد أدرك الغزالي بأن الدين لم يكن إلا ظاهراً تخفي وراءه تلك الشيع وتلك الأحزاب مصالح ضيقة، قد تكون سياسية أو دنيوية. وما انفك ينظر في تلك الأحوال حتى وقع في موجة شك عنيف وفي كل ما هو سائد من آراء وأفكار، مقبلاً على تقصي المنهج الكفيل بإيصاله إلى بر الأمان، ولأن بر الأمان لا يتحقق إلا عن طريق العلم المقرون باليقين، فقد ذهب إلى أنه لا أمان ولا ثقة في علم ما لم يكن علماً يقينياً. وفي هذا قوله: «ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني»⁵.

يعد العلم اليقيني ثمرة لكل شك منهجي سواء كان ذلك في المحسوسات التي مبدأها الحواس، أو المعقولات التي مبدأها العقل، أو الوجدانيات التي هي من اختصاص

الإلهام والشعور أو ما يسمى بالقلب. وكل يقين يحصل في إحدى هاتاه المعارف يسمى نورا، بمعنى أنه للحواس نورها وللعقل نوره وكذلك للقلب نوره الخاص. فالحواس نورها في البصر غير أن نقائصها كثيرة، ولذلك كان نور البصر أقل من نور العقل، لأن نور البصر يبصر غيره ولا يبصر نفسه أو ما بُعد عنه أو ما قرب قريبا شديدا منه، كما أنه يبصر ظاهر الأشياء دون باطنها، كما لا يبصر من الأشياء إلا بعضها دون النفاذ إلى ما وراءها⁶.

والنتيجة هي أن العقل أولى بالنور من العين المبصرة، والروح أولى بالنور من العقل، فكل معرفة يحصل عليها الإنسان تكون تابعة إما لنور البصر أو نور العقل أو نور الروح أو القلب، وهذا يعني بأن اليقين ثلاثة أنواع. الأول هو اليقين الحسي ونجده عند العوام. والثاني هو اليقين العقلي ونجده عند أولى النظر والتأمل. والثالث هو اليقين القلبي ونجده عند المتصوفة دون غيرهم من الناس⁷.

3.2 اليقين القلبي:

إذا كان الشك المنهجي سبيل كل من يسعى إلى اليقين، فإن اليقين القلبي على خلاف غيره من أنواع اليقين، لا يعد ثمرة مباشرة للشك المنهجي، ذلك أن المعرفة تحصل إما عن طريق الحواس أو الاعتبار والمشاهدة وهذه طريق التجربة الخارجية، أو عن طريق القلب وهو طريق التجربة الداخلية. وعليه فإن اليقين القلبي يحصل في المعرفة الداخلية التي تتوجه فيها النفس إلى ذاتها، أو ترتد على نفسها فتدرك صورة العالم المحفوظة في القلب، فتتنفجر منه المعرفة، وهذه المعرفة هي عند الغزالي أصفى وأدوم بل وأكثر وأغزر⁸. كما أن المعرفة الحاصلة في القلب، تحصل بطريق الكشف والإلهام دون سوائهما وفي هذا يقول: «إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية⁹».

والواضح من هذا القول أن اليقين القلبي يتعلق بالمعرفة الكشفية والحقيقة الدينية دون سواهما، أي أنه يتعلق بالإيمان وبموضوعات الآخرة وبمصير الإنسان بعد الموت. فهذه الموضوعات لا يمكن أن يحصل فيها غير اليقين القلبي، وهذا ليس لأن اليقين العلمي أقل مرتبة من اليقين القلبي، بل لأن القلب لا يهدأ ولا يستكين إلا إذا حلت السكينة والطمأنينة في أعماق سويدائه، ولا يغنيه عن ذلك ما يأتيه من أدلة النصوص أو الوحي. غير أن تلك السكينة وتلك الطمأنينة لا يحصلان في القلب إلا فجأة، وهذا ما يسميه الغزالي بالنور المقذوف في القلب: «وعدت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله¹⁰».

يصف الغزالي نور القلب الذي يحصل للحس ولا يحصل للعقل، بالحدس الداخلي الذي يتيح للنفس أن تطلع اطلاعا مباشرا على الحقائق والمبادئ الأولى، غير أن ذلك لا يحصل على وجه الإطلاق ما لم يتهيأ القلب لاستقبال ذلك النور، فهو يشترط لحصول ذلك نقاوة القلب وطهارته من كل أدرانه. وهذه هي حال الصوفية التي حباها الله بالعلم اللدني، وهي كحال النبي "الخضر" «فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما¹¹».

لقد انتهى الغزالي بعد رحلة بحث وتقصي في حقيقة الفرق الطالبة للحق إلى أن الصوفية هي الفرقة الوحيدة التي تستأثر بالمنهج الصحيح الموصل إلى اليقين الذي تنتفي معه كل الشكوك؛ فهي تستنير من مشكاة النبوة، ونور تلك المشكاة لا يضاهاه أي نور على وجه الأرض¹².

3. الحقيقة واليقين القلبي عند باسكال:

1.3 حقيقة الإنسان:

يبدأ باسكال من حقيقة الإنسان، والإنسان في اعتقاده عظيم إلا أن عظمته لا تكمن في قدرته على معرفة الأشياء بل في قدرته على معرفته نفسه أولاً، ومعرفة النفس وسيلة لغاية أعظم، فإن لم تتحقق الغاية الأعظم تحقق ما دونها من غايات وعلى رأسها حسن تنظيم الحياة وتديريها. يقول باسكال: «معرفة النفس لازمة. فإذا لم تساعد على معرفة الحقيقة، فلا أقل من أن تساعد على تنظيم الحياة، وما من شيء أكثر عدلاً من هذا»¹³.

ولكن ما هي الحقيقة التي يقصدها باسكال في قوله؟

إنها حقيقة كونه ذو طبيعة ناقصة وعاجزة؛ فقدرة الإنسان على إدراك هذه الحقيقة هي مصدر وسر عظمته، والإنسان ذو كرامة لأنه كائن مفكر، وطبيعته بل وكرامته تقتضي منه أن يفكر في ذاته ومصيره أولاً ثم أن يفكر في الذي يتحكم بذلك المصير. وفي هذا يقول باسكال: «من الواضح أن الإنسان برئ ليفكر، وفي هذا كل قدره، وكل استحقاقه، وكل واجبه أن يحسن التفكير، والحال أن نظام التفكير هو أن يبدأ الإنسان بذاته وبخالقه وبمصيره»¹⁴.

وهكذا يعيد باسكال توجيه تفكير الإنسان إلى الإنسان ذاته، لا إلى ما يحيط به من أشياء، فليست العبرة بمعرفة المكان الذي يحيط بنا، بل بمعرفة تلك النفس التي تدور في فلك ذلك المكان. لقد وقع الإنسان في الغرور المميت عندما اهتم بالبحث في الطبيعة والموجودات، أو كما يسميها باسكال "اللانهايات"، فالإنسان قد نسي بأن النفس هي أدنى منه من تلك اللانهايات. ولذلك فالأولى بالنفس أن تبدأ بمعرفة مداها وحدها في هذا الوجود، وبأنها شيء من الأشياء لا كل الأشياء، وأن ما يعرفه الإنسان لن يتجاوز مهما بلغ في درجة عظمته مدى العالم المنظور، وعندها فقط بإمكان

الإنسان أن يبدأ في تلمس طريق الخلاص من شقائه. «فلنعرف مدانا إذن، إننا شيء من الأشياء ولسنا كل شيء، إن ما نملك من كينونة، يحجب عنا معرفة المبادئ الأولى المولودة من العدم، واليسير الذي نملكه يستر عنا منظر النهاية»¹⁵.

إن اعتقاد الإنسان بأنه ذات مفكرة في جوهره، قد جلب عليه كل أسباب البؤس والشقاء، وقد تجلى ذلك في بروز الكثير من مظاهر الشك في الإيمان والإلحاد والتأليه الطبيعي. وقد بلغ ذلك الشك ذروته مع "ميشال مونتاني" الذي أنكر قدرة الإنسان على إثبات وجود الله سواء كان ذلك بواسطة العقل أو بواسطة الحواس¹⁶. ومما زاد في تغذية هذا الاعتقاد هو ظهور اتجاه فلسفي جعل من العقل سيد عصره وقد سمي بعصر العقل؛ فقد شهد زمن ديكارت جموحا للعقل لم يحصل مثله من قبل؛ ساهم في بروز فكر علماني لا ينكر الدين علانية، لكنه يساهم في تهيئة الظروف من أجل التنصل منه نهائيا.

كما شهد عصر باسكال اتجاهان دينيان ساهما في توسيع الهوة بين الإنسان والإيمان. أحدهما كاثوليكي يعطي الأولوية للإيمان على العقل في أمور الدين، والآخر بروتستانتي يعطي الأولوية للعقل على الإيمان. وبين المغالاة الإيمانية من جهة والمغالاة العقلانية من جهة أخرى، اختار باسكال أن يقف موقفا وسطا، وقد تجلى ذلك في إنكاره للبراهين الميتافيزيقية ونفي قدرتها على إقناع الناس بحقيقة المسيحية وبأهمية الدين في حياتهم. لكنه اختار في سبيل تحقيق ذلك الأدلة السيكلوجية القلبية مدعمة بشواهد تاريخية ملموسة. وفي هذا بالضبط تكمن أصالته وريادته في الدفاع عن الدين، سبق فيها المدافعين عن الدين من أمثال كيركجارد وبرجسون¹⁷.

2.3 قصور العقل:

تظهر النزعة الشكية عند باسكال بشكل واضح في حديثه عن قدرة العقل على إدراك الأوليات، وهي النزعة التي تكشف تأثره الشديد بالفيلسوف

الفرنسي "مونتاني"¹⁸. غير أنه على خلاف مونتاني، لا يشك شكاً مطلقاً في قدرة العقل، وذلك لاعتقاده أن الشك المطلق انتقاص من قيمة وجوده أو هو كالقول بأن وجوده عبث لا طائل منه، وهذا ما لم يدركه مونتاني والكثير من الملحدّين على وجه العموم. أما باسكال فيؤكد على أن الإيمان في حد ذاته يتعارض مع مقولة الشك المطلق، وحتى إن كانت هناك موضوعات للشك المطلق فهي موضوعات محددة وليست لانهائية. كما أن دفاعه عن الدين لم يدفعه إلى التقليل من قيمة العقل، بل إنه يذهب إلى أن قيمة العقل لا يمكن لأي وحي أن يقلل منها. ولكنه على خلاف ديكارتر، يشعر بعدم كفايته ولذلك لا يتوان في تذكيرنا المرة تلو المرة بأنه ضعيف وعاجز، وأن ضعفه وعجزه يظهران في طبيعة الإنسان ككل.

لا ينكر باسكال وجود مبادئ عامة تحكم الطبيعة، لكنه ينكر إمكانية فهمها وتعقلها، بل إنه يعتقد بأن الإنسان يحس المبادئ العامة أكثر مما يتعقلها، وتفسيره لذلك، هو أن تعقل الأشياء يقتضي حدها والبرهنة عليها، وهذا في نظره عمل لا يمكن الانتهاء منه نظراً لأننا نعيش في كون لامتناهي الحدود. يسي باسكال تلك الحدود بالأوليات، وهي ليست طبيعية نظراً لأن الطبيعة تتسم بالتغير المستمر، في حين أن ما نعتقد بأنه ثابت، فهو من قبيل المؤلف والعادة. فالعادة طبيعة ثانية تمحو الطبيعة الأولى، بل إنه يخشى أن تكون الطبيعة الأولى بدورها هي مجرد عادة أولى. وفي هذا المعنى يتساءل باسكال قائلاً: «هل مبادئنا الطبيعية إلا مبادئنا المعتادة؟»¹⁹.

إذا كان العقل عاجزاً عن تعقل المبادئ الأولى، فذلك دليل على أنها ليست من اختصاصه؛ فهو مجرد قوة استدلالية تستنبط النتائج من المقدمات الآتية من القلب والإرادة. أما العقل فإنه معرض لأن يميل في كل الاتجاهات غير اتجاهه الخاص به، والناس عادة ما لا يؤمنون إلا بما يحبون ويرغبون من الأشياء، وهذا ما

يجعل طبيعته مباينة لطبيعة القلب، وبالتالي معرفته بالأصول والمبادئ ناقصة مالم يستند إلى القلب. وفي هذا يقول: «نعرف الحقيقة ليس بالعقل وحده بل بالقلب أيضا، وإنما بهذه الطريقة الأخيرة نعرف الأصول الأولى، وعبثا يحاول العقل المعلل الذي لا حصة له فيها أن يناهضها»²⁰.

3.3 اليقين القلبي:

إن أكثر ما يعجز العقل عن إدراكه وتعقله هو الحقائق الإلهية، في حين أن القلب يدركها ويدرك كل الحقائق الأخرى، أما العقل فيكتفي بما يأتيه من القلب أحيانا، فيحاول أن يستنبط منها النتائج، وهذا ما يعني بأن عمل العقل يتوقف أحيانا على ما يمد به القلب من مادة خام تحتاج إلى التحليل والاستنباط. وهذا ما يعني بأن مجال إدراك القلب أوسع وأشمل؛ فالقلب يحس الأبعاد ولا تناهي الأعداد، أما دور العقل فيقتصر على البرهنة والاستدلال، وما كان ليقوم بعمله لولا ما يقدمه له القلب من موضوعات هي المادة الخام لعمله²¹.

لقد أخذ باسكال من مونتاني عصارة فكره وأساسه الشك، وفي حين سلك "مونتاني" طريق الشك المطلق فوقع في اليأس وضل طريق الخلاص، اختار باسكال منذ البداية طريق الشك الهادف المقرون بالقصد والإرادة والوعي؛ فعلى الرغم من أن كل شيء في عصره كان يدعو للشك والإنكار، إلا أنه لم ينتهي إلى اليأس المطلق؛ فقد كان يتلمس طريق الخلاص ويشعر بوجوده. وهذا ما لم يستطع مونتاني إدراكه ولا الشعور به. وقد ألمح باسكال إلى وجود ذلك الشعور، فعلى الرغم من الظلمة تحيط به في كل ناحية، وعلى الرغم من أن كل شيء في الطبيعة يدعو إلى الشك والقلق، إلا أن دلائل الألوهية موجودة بدورها في كل مكان، غير أن الإنسان يبقى مع ذلك أقرب من الإنكار إلى اليقين. وهذه حالة من الإشفاق لا ينفع معها إلا تدخل العناية الإلهية ترشد القلب إلى النور واليقين²².

لم يكن باسكال يتمنى حدوث شيء محكوم بالاستحالة، بل كان قرارة نفسه يؤمن بوجود تلك القوة التي هي مصدر اليقين الوحيد، فهي قريبة من النفس، وهذه حال باسكال، فهو رجل دين وفكر لا فكر وحسب. فاليقين موجود لأن وجوده يتوقف على وجود تلك لأن عجز العقل عن إدراكه لا يعني بالضرورة انتفاء وجوده، بل هو تأكيد آخر على ضعف العقل وعجزه. وهذا على خلاف القلب، فهو مقر الشعور بوجود الله، وأنه لا ضمان للحقائق الإيمانية إلا بوجود ذلك الشعور، بل يذهب باسكال إلى أن الشعور بوجود إله خالق سوف يضمن للإنسان ليس الحقائق الإيمانية فقط، بل ويضمن له أيضاً حقائق العلم، وهذا ما يجعل القلب أجدر بطبيعته من العقل في حفظ اليقين واحتضانه. يقول باسكال: «للقلب حججه التي لا يعرفها العقل (...) والقلب لا العقل، هو الذي يحس الله، وهذا هو الإيمان، استشعار بالقلب لا بالعقل»²³.

غير أن حصول اليقين القلبي في الحقائق الإيمانية، لا يمكن حدوثه دون تدخل العناية الإلهية وهذه بدورها لا تتحقق إلا ببذل الجهد والتضحية من أجل ذلك، وهذا ما لا يمكن أن يتاح لكل الناس، ذلك أن العالم مزيج من الغموض والوضوح وكل شيء مكتوب بشفرة يصعب قراءتها. فلا يقين دون إيمان، ولا إيمان دون يقين، أي أن مبدأ كل يقين ممكن يبدأ من الحقائق الدينية والإلهية، ومن كان إيمانه بفضل شعور القلب، كان سعيداً في يقينه. وهذا ما يذكرنا بديكارت وفكرة الضامن الإلهي لديه، فإذا ديكارت بلجاً إلى الضامن الإلهي فذلك من أجل أسناد العقل في ضمان اليقين العلي، في حين يلجأ باسكال إلى الضامن الإلهي من أجل إسناد القلب في حصول الإيمان. غير أن القلب لا يتهيأ لذلك اليقين إلا بجهد يبذله الإنسان في سبيل تنزيه قلبه من الغرور والكبرياء والأنانية، فهي أكثر الأدران التي تحجب عن القلب نور الحقيقة.

4. استنتاجات: بين الغزالي وباسكال

- الكثير من أفكار الغزالي تتكرر عند باسكال وذلك على غرار أن:
- الطبيعة الإنسانية عاجزة وصورة عجزها تظهر في الحواس والعقل.
 - الشك أساس النظر في الأشياء وشرط للبصيرة والاستنارة في الحياة.
 - تعدد المناهج بتعدد أوجه الحقيقة وموضوعاتها، وبالتالي فاليقين بدوره ممكن في أي نوع من أنواع الحقيقة.
 - الحقيقة الإيمانية هي حقيقة الحقائق، ولذلك فمن الطبيعي ألا تكون متاحة لكل الناس.
 - الحقيقة الإيمانية مقرها القلب وإدراكها يتم حدسيا لا عقليا.
 - حصول اليقين القلبي يتوقف على العناية الإلهية.
 - الشك في العقل لم يكن مطلقا، لأن في ذلك انتقاص من كرامة الإنسان.
 - القلب لا يستغني عن العقل في إدراك الحقيقة الدينية.
- والسؤال الذي يطرح الآن هو كالاتي: كيف نفسر ظهور وتكرار أفكار الغزالي عند باسكال مع أنهما ينتميان إلى عصرين مختلفين ولا تجمعهما أي لغة مشتركة؟
- يمكننا هنا أن نستعير بثلاث فرضيات اعتاد الدارسون الرجوع إليها في طبيعة الترابط والتقاطع بين الأفكار والآراء والمذاهب الفلسفية عبر تاريخ تطورها الطويل. وهي كالاتي:
- أولها: فرضية الانتحال وهي أن ينتحل أحد الفلاسفة أفكار غيره وينسبها لنفسه أو يقتبس منها اقتباسا كليا دون اعتراف منه على غرار حالة ديكارت مع الغزالي؛ فكل الشواهد التاريخية والفلسفية تشير إلى اطلاع ديكارت اطلاعا مباشرا على كتاب المنقذ من الضلال²⁴. غير أن هذه الفرضية لا تنطبق على باسكال، لأنه لا وجود لأي دراسة تثبت حصول هذا النوع من الانتحال.

ثانيمًا: فرضية الاعتراف بالفضل وتتمثل في اعتراف الفيلسوف بفضله من سبقوه عليه. ولهذه الحالة شواهد كثيرة تتكرر في تاريخ الفكر الغربي على وجه الخصوص على غرار:

- حالة كانط مع روسو²⁵.

- حالة شوبنهاور مع روسو²⁶.

- حالة نيتشه مع شوبنهاور، فقد ألف نيتشه كتابه «l'éducateur» اعترافًا بفضله شوبنهاور عليه في الكثير من الأفكار.

ثالثًا: حالة لا يثبت فيها الانتقال ولا الاعتراف، وهذه شواهد كثيرة لا حصر لها. وقد ذهب "عبد الرحمان بدوي" في تفسير حقيقة "التقاطع الحاصل بين المناهج والفلسفات بما يسميه "تلاقي العقول الكبيرة ذات البصيرة الثاقبة"، أو ما يصر بعض المستشرقين الألمان على تسميته بأنه مجرد "توافق في توارد الأفكار بين الفلاسفة". غير أن ما يهم في هذا التقاطع سواء ثبت تأثر باسكال بالغزالي أو لم يثبت، هو أن أصالة صاحب "المنقذ من الضلال" تبقى كاملة غير منقوصة حتى وإن لم تثبت الشواهد التاريخية علة وملابسات هذا التقاطع.

5. خاتمة:

مهما قيل عن طبيعة التقاطع الحاصل بين منهجي الغزالي وباسكال في بحثهما عن الحقيقة، فإن الحقيقة الثابتة والتي لا يمكن إنكارها هي أن الشك حالة طبيعية لما يعتري الإنسان من نقص وعجز عن إدراك حقائق الأشياء، وهي حالة عامة تتجلى في صورتين هما: الوقوع في الخطأ والوقوع في حال من الشك والريب. وعليه فقد يكون من الطبيعي أن يحدث مثل هذا التقاطع بين على طبيعة الشك ذاته، فهو خاصية إنسانية عامة لا تقتصر على الغزالي أو باسكال. وهذا ما يؤكد على مبدأ تقاطع الفكر الفلسفي في كل العصور بغض النظر عن طبيعته أو لغته أو موضوعاته، وهو المبدأ

ذاته الذي يثبت بأن الحضارة الإنسانية محكومة بخيط متصل لا ينقطع، يعكس حركة التلاقي المتكرر بين الحضارات أي بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ما عبر عنه "حسين مؤنس" في كتاب "الحضارة": «الحضارة ظاهرة إنسانية عامة (...) وان البشر لم يعرفوا الا حضارة واحدة بدأت منذ فجر التاريخ واتصلت الى يومنا هذا، وأن كل شعب قد حمل مشعلها في فترة من الفترات عبر تاريخ الزمن الطويل». فما ينطبق على الحضارات ينطبق على العلوم وما ينطبق على العلوم بدورها ينطبق على المناهج. غير أن الأسبقية الزمنية تثبت أصالة الغزالي على باسكال في هذا الشأن بالتحديد.

6. قائمة المراجع:

1. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق وتقديم: جميل صليبا وكامل عياد، (بيروت، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 2003).
2. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، ط1.
3. أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا (مصر، دار المعارف، 1964)، ط1.
4. السيد محمد بن عقيل بن عليالمهدلي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت، (القاهرة، دار الحديث، 1985)، ط2.
5. بليز باسكال، خواطر، ترجمة: إدوار البستاني، (بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1972).
6. فرانكلين لباومر، الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة: أحمد حمدي محمود، (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987).
7. عبد الرحمان بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، (الكويت، وكالة المطبوعات، 1979)، ط3.
8. جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1995)، ط3.
9. إيمانويلكانط، نقد العقل العملي، ترجمة: غانم هنا، (بيروت. المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ط1.

10. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، (مصر، دار المعارف، 1986)، ط5.

- Arthur Schopenhauer, les deux problèmes fondamentaux de L'éthique, traduit : Christian Sommer, (France, Gallimard, 2009).

7. الهوامش:

¹ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصول إلى ذي العزة والجلال، تحقيق وتقديم: جميل صليبا وكامل عياد، بيروت، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، (2003)، ص81.

² أبو حامد الغزالي، ميزان العمل - تحقيق وتقديم: سليمان دنيا (مصر، دار المعارف، 1964)، ط1، ص10.

³ السيد محمد بن عقيل بن عليالمهدلي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت، (القاهرة، دار الحديث، 1985)، ط2، ص129-130.

⁴ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصول إلى ذي العزة والجلال، ص82.

⁵ المصدر نفسه، ص82.

⁶ -عبد الرحمان بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، (الكويت، وكالة المطبوعات، 1979)، ط3، ص199-200.

⁷ السيد محمد بن عقيل بن عليالمهدلي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت، ص136.

⁸ جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1995)، ط3، ص382.

⁹ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، ط1، ص895.

¹⁰ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصول إلى ذي العزة والجلال، ص86.

¹¹ الآية 85، سورة الكهف.

¹² أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصول إلى ذي العزة والجلال، ص139.

¹³ بليز باسكال، خواطر، ترجمة: إدوار البستاني، (بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1972)، ص26.

¹⁴ المصدر نفسه، ص59.

¹⁵ المصدر نفسه، ص30.

¹⁶ فرانكلين لياوامر، الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة: أحمد حمدي محمود، (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987)، ص77.

¹⁷ المرجع نفسه، ص84.

¹⁸ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، (مصر، دار المعارف، 1986)، ط5، ص92.

¹⁹ بليز باسكال، خواطر، ص41.

²⁰ المصدر نفسه، ص97-98.

²¹ المصدر نفسه، ص98.

²² المصدر نفسه، ص80.

²³ المصدر نفسه، ص 97.

²⁴ السيد محمد بن عقيل بن علي المهدلي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت، ص 329-331.

²⁵ إيمانويل كانط، نقد العقل العملي، ترجمة: غانم هنا، (بيروت. المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ط1، ص 13.

²⁶ Arthur Schopenhauer, les deux problèmes fondamentaux de L'éthique, traduit : Christian Sommer, (France, Gallimard, 2009), p388.